وحدانية الحضارة الانسانية

بين وهمية الصراع ورهان التوافق والتواصل

محمود أبو بكر

الكلمات المفتاحية: محمد أبو بكر، وهمية الصراع ورهان التوافق، صراع الحضارات، هنتغتون، الولايات المتحدة الأمركية، الشرق، الغرب.

يقول "ديفيد كلارس": "إن الخطر الأعظم الذي واجه أمريكا (على الساحة الفكرية) بعد الحرب الباردة هو غياب العدو الأيدلوجي "، وبالتالي فإن الاهتمام البالغ الذي وجدته نظرية الصراع لـ"هنتغتون" كان نتاج التركيز الأمريكي البالغ –حينها– في رحلة البحث عن الأعداء المفترضيين ضمن سياق التحولات الكبرى التى عرفتها الساحة الدولية، بجانب عوامل أخرى لم تكن أقل حدة من سابقتها والمتمثلة في تحكم الأبعاد الثقافية والعقائدية لدوائر معينة في الغرب، والتى لاتزال تسيطر عليها أسطورة "التفوق الحضاري"، ولم تكن تلك الأكذوبة وليدة اليوم بل سبق وأن وُظفت في ظروف دولية مغايرة أو مماثلة للحالة القائمة الآن، وقد نضطر لاسترجاع مقولة "فيكتور هيغو" بعد استعمار الجزائر قوله "إنها الحضارة تنتصر على البربرية... نحن أغريق العالم وعلينا تنويره" وبالطبع علينا أن نموضع هذه الصرخة ضمن سياق تلك الفترة –حتى لانظلم هيغوا أكثر مما ينبغي– كما يقول "الأستاذ هاشم صالح" في تحليله لتلك المقولة.

مايعني أن هذه النظرة الاستعلائية والإحساس بالتفوق الحضاري الوهمي لدى الغرب قديم قدم الحضارة ذاتها، ولعل علماء الأنتروبولوجية أنفسهم ساهموا في تشكيل ذلك الفهم القاصر –إما نتيجة قصور أو غرور أصابهم أو خدمة للأغراض الاستعمارية حين شُرعت الأبواب لتلك الدول للتوسع والهيمنة، وبالتالي يمكن تفهم التشريح الذي قدمه عالم الأنتروبولجية الفرنسي" ليفي بريل" حين تحدث عن ما أسماه بـ"العقلية البدائية" ليبرر الاستعمار بشكل غير مباشر، ففي رأيه أن الغرب وحده الذي توصل إلى الفكر العقلاني والمنطقي، وأما بقية الشعوب فما تزال تعيش في مرحلة العقلية ما قبل المنطقية، وبما أنها غير قادرة على المرور بتلك المراحل التى مر بها الغرب منفردة فأنه ينبغي على الغرب أن يساعدها (أي أن يستعمرها).

وإذا كانت تلك الحجج الواهية تساق في تلك الفترة التاريخية التى عرفت التوسع الاستعماري الغربي فإن فترة الحرب الباردة قد عرفت نوعًا آخرًا من الأطروحات التى تختلف روحًا ونصًا مع تلك الأطروحات حيث تبلورت سياسات الاستقطاب الثنائي وتم غض الطرف عن كل ذلك الإرث البغيض من الأوهام، فكانت مهمة تحجيم المد الشيوعي

ومحاصرته معركة تحالفت من أجلها الإمبريالية الأمريكية مع الدول العربية والإسلامية –عندما تطلب الأمر ذلك – ولعل العودة إلى أطروحة "هنتغتون" –حاليًا– تبررها الأوضاع المستجدة على خارطة المواجهة الغربية للآخر، وبذلك تحول "الحليف" إلى "عدو" لدود بينما تم استدعاء تلك النظريات التى عفا عليها الدهر لتبرير أوضاع مستحدثة من قبل بعض التيارات الغربية المعروفة سلفًا بعدائها السافر– ليس للإسلام كديانة وحضارة انسانية وروحية عظيمة فحسب– بل للآخر ككل، بكل امتدادته الثقافية أو مكتسباته الحضارية أو إنتاجه المعرفي والمادي، وبالتالي لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستناد إلى تلك الأطروحة لتبرير مواقفنا –أو لبناء مواقف جديدة – تنزع صفة الإنسانية والشمولية من مفهوم الحضارة. فالحضارة في اعتقادي هي كلٌ متكامل، وذات طابع انساني شامل، وأن تأثير الثقافات وتطور العلوم والمعارف وتفوقها لدي ثقافة ما، ما هي إلا إضافة فعلية لوعاء الحضارة الانسانية الذي تنصهر فيه كل الهويات والثقافات دون التنازل عن خصوصيتها التى تشكل مصدر إثراء وتنوع مما يسمح بالتزواج والتكامل بين تلك الثقافات في إطار من التواصل الحضاري الفاعل وأن تفوق أمة من الأمم أو ثقافة من الثقافات في فترات تاريخية معينة بما يسمح بقدرتها على الإنتاج المعرفي والفكري والأدبي لا يعني بالضرورة إحداثها قطيعة مع الأمم والنماذج الثقافية التى سادت قبلها أو– قد تسود – بعدها في سلم الحضارة الإنسانية، بل هي امتداد لتلك النماذج وإضافة و"تجاوز" للأنماط السائدة والتى سوف تساهم أيضًا في بروز نماذج جديدة لاحقًا.

إن التعدد الذي تزخر به الإنسانية في الساحة الثقافية والفكرية –كما ذكرنا سابقًا– هو مصدر إلهام وإبداع وابتكار بأنساق ونماذج متعددة وثرية.

يقول الله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}[1] ولعل بعض من تلك الآيات الربانية قد تبينت لنا في هذا الزخم التعددي الذي تشهده الحضارة الإنسانية في مختلف مراحل التطور الإنساني كمرادف للثراء وللاستفادة منه ثقافيًا، وهو أيضا إشارة إلى التداول المرحلي للثقافات في سلمها بشكل دوري كما تتصوره نظرية "ابن خلدون" (حول الحضارة من السمو حتى التقهقر عند وصولها قمة التمكين والتطور) كما أن مصطلح (الحضارات) لا ينفي وحدانية وإنسانية الحضارة فمصطلح (الحضارة الغربية، والحضارة الإسلامية، و..) لا يعني بالضرورة تبرير لحدة الانفصام أو التمايز وبالتالي طرح فكرتي الصدام والتضاد الوهميتين.

وبالرغم من التناول المسهب والمبتزل لهذا النوع من الأطروحات في غير منبر ومناسبة وبالرغم من توفر نماذج من الممارسات والتصريحات الغربية الداعية والمؤمنة بهذا الفارق الدونكشوتي المفتعل، فإن القرائن التاريخية والإسنادات

---

[1] سورة **الروم**، الآية 22.

العلمية تثبت صيغة التراكم والتواصل الحضاري عبر التاريخ منذ سمو حضارة أثينا وحتى حاضرنا المعاش..، فجميعها لا تشكل سوى مراحل تلاقح وتكامل حضاري مرورًا بكل الثقافات التى تركت بصمتها واضحةً على جدار التواصل الحضاري والإنساني.

والملفت للانتباه بعد الأحداث التى شهدتها مدينة نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر، هو تصاعد وتيرة التصريحات والتحليلات (السياسوية والفكروية) الزاعمة بأن ذلك الفعل الآثم لم يكن سوى نتاج "حضارة متخلفة وبدائية" ناسيةً أو متناسيةً بأن تلك الحضارة هي التي وضعت نواميس التواصل بين مختلف الأديان والثقافات والملل والنحل وإقامة دولة تساوى فيها (في الحقوق) المؤمن بالكافر وأاصحاب الديانات السماوية الأخرى، وأن حضارة الشرق القديم هي التي أهدت الإنسانية أعظم اختراع في التاريخ، وهو الكتابة الأبجدية، كما أن تلك الحضارة التى ولدت بغار قصي على صحراء الجزيرة العربية قد امتلكت أول ما امتلكته مفتاح سحري متمثل في مفردة واحدة هي "إقرأ"، حيث بدأت بها الرسالة المحمدية ولم تنته ولن تنتهي إلى يوم يبعثون، تلك هي قيمة الحضارة الإسلامية التى تثمن العقل –كما لم تفعل أي حضارة أو ديانة أخرى– وتدعوا للعلم والمعرفة والإدراك، قبل العبادة والتواصل الروحي الذي هو أساس أي ديانة أو عقيدة.

وإذا كانت تلك الأحداث المؤسفة قد ارتكبت بشكل ما، بأيدي عناصر تنتمي للإسلام، فإن كل الحضارات قد عرفت شخوص وعناصر تمارس فعلًا مشينًا وتنتمي لتيارات متزمتة، ولعل دول تحكم باسم الدين وترتدي جلبابه قد أقامت حروب غير شرعية وغير عادلة على شعوب ومجتمعات آمنة، وليس بعيدًا عن التناول استدعاء الحروب الصليبية كمثال دامغ على دحض حجة المدعيين والمتشدقيين ببراءة أصابع تاريخهم (المجيد) من أي ممارسات إرهابية تروع الآمنيين، بينما تزخر القيم الإسلامية بعناوين التواصل والتآخي وحفظ حرمة آلاخر بصرف النظر عن ديانته أو خلفيته الثقافية والعقائدية.

ولعل الدول الغربية التى تمارس اليوم اسوأ سياسات التمييز ضد العرب والمسلمين في ديارها – بذريعة الإرهاب الإسلامي– بحاجة ماسة اليوم إلى من يعلمها معاني "البر والقسط" الذي يأمرنا به القرآن حتى يتسنى لها الادعاء اكثر بأنها قلعة للحريات الفردية والعامة كجزء من هذه الحضارة العالمية، فضلًا عن أن تلك سوف تكون سانحة أخرى للتعرف على "حضارة" الإسلام عن كثب بعيدًا عن الأحكام المسبقة الناتجة عن الموروث العقدي الذي يصمم تلك العقلية ويتحكم في صياغتها الفكرية.

كما أننا بحاجة إلى مزيد من ممارسة النقد الذاتي بشكل بنيوي حتى نتمكن من إيصال موروثنا بشكل حضاري نحو الاخر، وهنا تستحضرني كثيرًا من ردود الأفعال التى أسالت مدادًا متدفقًا على صحفنا في الأعوام القليلة الماضية، خاصةً تلك التى أتت كرد على ملياردير إيطاليا "بليرسكوني" في إدعائه "بالتفوق الحضاري" حيث حرص كثير من الكتاب العرب والمسلمون للرد، وقد اضطر بعضهم إلى حد استحضار كثيرًا من أعلام الفكر والأدب والفلسفة من أمثال بن رشد، وبن سينا، وأحمد الجبرا، وغيرهم ممن لهم بصمات منيرة في صروح الحضارة، لتفنيد إدعاءات "دولة رئيس الوزراء" الموقر، والإشكالية في هذا الطرح وهذا الاستحضار الاضطراري هو أنه يشكل انزلاق غير مقصود نحو نزع صفة الإنسانية من أولئك العظماء الذين بالتأكيد كانت أعمالهم ومنجزاتهم ناتجة من قناعة راسخة تتمثل في أنهم جزء من هذه الحضارة الإنسانية، وأنهم يشكلون إضافة نوعية في سلسلة الاجتهادات والمنجزات الحضارية، ولذلك نجد التأثر واضحًا لدى إبن رشد برموز الحضارة اليونانية، التى يعتبرها أم الحضارات، وبالتالي فإن البحث عن مكان قصي خارج دائرة الحضارة الإنسانية يظل عملًا غير موفق من قبل كتّابنا على كثرتهم، بل على المفند أن يستدل بهذا التواصل كجزء من حضارة واحدة متنوعة ومتعددة المشارب والثقافات، ولعل التطور العلمي والأكاديمي الهائل الذي تشهده المعمورة– وبالتالي الحضارة– وإن كان وافدًا من شمال المعمورة في الغالب فإن ثمة عقول من جنوب الخارطة العالمية وبخاصة من منتسبي الحضارة الإسلامية والعربية قد ساهمت في بلورته وفي اكتشافاته الدقيقة، ولسنا بحاجة هنا لاستدعاء أسماء لامعة لتأكيد ذلك .

ختامًا إن التواصل والتكامل هي سمة من سمات الحضارة، حيث لا تسموا ثقافة من الثقافة أو علم من العلوم والمعارف والفنون إلا عبر تواصله بالثقافات والمعارف والفنون الأخرى وقدرته على صهرها وصقلها في إطار من التكامل الفاعل خدمةً لقيم الإنسانية التى لا تتجزأ.